المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

مقاومة الشريف محمد بن عبد الله (1851-1871)

على ضوء كِتَابْ الفرنسيون في الصحراء (Les Français dans Le Désert)

The resistance of Sharif Mohammed bin Abdullah (1851-1871) in the light of the book of the French in the desert

عبد القادر مرجاني

المركز الجامعي أفلو – الأغواط الجزائر

d.mordjani@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/05/06 تاريخ القبول:2020/05/12 تاريخ النشر: 2020/10/25

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على كتاب ومصدر مهم وهو "الفرنسيون في الصحراء" لصاحبه ترومللي الذي يتناول التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية في النصف الثاني من القرن 19م، فقد كان ترومللي ضابط في الجيش الفرنسي وكان على علاقة بسي حمزة من أولاد سيدي الشيخ وقاد الحملات الفرنسية لإخضاع القبائل الصحراوية، كما أن صاحب الكتاب يعطينا معلومات قيمة عن أهم المواجهات التي حدثت بين الفرنسيين والثوار في الصحراء الجزائرية وعلى رأسهم محمد الشريف بن عبد الله وفق تسلسل كرنولوجي دقيق، كما يمدنا بمادة خبرية مهمة يجب تمحيصها وتدقيقها ومقارنتها بما كتبه الجزائريون عن هذه المقاومة، وعليه فإننا سنحاول أن نتعرف على حياة الشريف محمد بن عبد الله ونشأته ورحلاته، ومراحل مقاومته ومواجهته للفرنسيين وسي حمزة ولد سيدي الشيخ من خلال هذا المصدر المهم.

الكلمات المفتاحية:

المقاومة الشعبية؛ الاستعمار الفرنسي؛ الشريف محمد بن عبد الله؛ الصحراء الجزائرية؛ الجنوب الشرقي؛ الجزائر؛ ورقلة؛ الكتاب الفرنسيين؛ ترومللي.

ABSTRACT:

This article aims to highlight a book and an important source, "The French in the Desert" by Tromley, which deals with the French expansion of the Algerian Sahara in the second half of the 19th century. Tromelli was an officer in the French army. And the author of the book gives us valuable information about the most important confrontations that took place between the French and the rebels in the Algerian Sahara, headed by Mohammed Sharif Ben Abdallah in chronological sequence accurate, and provides us with an important news item to be scrutinized and checked and compared to what the Algerians wrote about This resistance, and therefore we will try to learn about the life of the Sharif Mohammed bin Abdullah and its origins and trips, and the stages of resistance and confrontation of the French and Si Hamza Ould Sidi Sheikh through this important source.

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

Keywords:
Popular Resistance; French colonialism; Sharif Mohamed Ben Abdallah; Algerian Sahara; South East; Algeria; Ouargla; French writers; Tromley.

مقدمة:

لاقى المستعمر الفرنسي منذ أن وطأت أقدامه أرض الجزائر مقاومة مستميتة وشرسة تمثلت في المقاومات الشعبية بقيادة زعماء وشيوخ الطرق الصوفية، ولكن فشلها أتاح للمستعمر المجال لمواصلة مخططاته التوسعية، فبعد الاحتلال الشبه التام للمناطق الشمالية وجهت فرنسا أنظارها نحو الجنوب بمناطقه السهبية والصحراوية، أين اصطدمت طموحاتها برفض شعبي كبير وثورات متواصلة بقيادة مجاهدين أمثال الشيخ بوزيان، وبن ناصر بن شهرة، وبوشوشة، والمقراني وغيرهم، فاستخدمت مختلف أساليب التعذيب والتشريد والسجن للقضاء عليهم وقتل روح المقاومة لديهم، والشريف محمد بن عبد الله كواحد من هؤلاء الأبطال المجاهدين أردنا أن نتطرق إليه في هذه الورقة البحثية نظرا لأهمية ثورته وصداها الكبير في الصحراء، وهذا من خلال مصدر أجنبي مهم وهو الفرنسيون في الصحراء (Les Français dans le désert) لصاحبه س. ترومليي[1] الذي كان معايشا للأحداث التي وقعت للشريف محمد بن عبد الله، وقد قسمنا موضوعنا كالتالي:

أولا: شخصية محمد بن عبد الله وعلاقته بالفرنسيين

1/ محمد بن عبد الله مولده ونشأته

2/ محمد بن عبد الله وموالاته للفرنسيين

3/ رحلته إلى الحج والتقاءه بمحمد علي السنوسي

ثانيا: مراحل مقاومة الشريف محمد بن عبد الله

1/ تنصيب الشريف سلطان على ورقلة (مرحلة الإعداد والتحضير)

2/ مقاومة الشريف محمد بن عبد الله (مرحلة التوسع والقوة)

[1] - **ترومليي:** عالم وضابط فرنسي من مواليد 1820 برايمس مارن (Reims Marne)، انخرط في صفوف كتيبة المشاة سنة 1839، وقد جاء إلى الجزائر سنة 1851، وبقي بها حوالي 25 سنة، كما أصبح عضوا بجمعية الشباب الأدبي سنة 1872، وتحصل على وسام الشرف من الحكومة الفرنسية، ينظر: Narcisse Faucon, Op-Cit, pp 603-609.

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

3/ التوسع الفرنسي في الجنوب والقضاء على الشريف (مرحلة التراجع والضعف)

أولا: شخصية محمد بن عبد الله وعلاقته بالفرنسيين

1/ مولده ونشأته:

كان محمد بن عبد الله مرابطا بسيطا وغامضا من أولاد سيدي أحمد بن يوسف، وهي فرقة من قبيلة الغسول التي تبني خيامها شمال تلمسان، وكان رجلا صالحا تميز بشدة تدينه وممارسته الصارمة للتعاليم الدينية، وعرف بصفته طالبا في زاوية سيدي يعقوب لأولاد سيدي الشيخ ولكن شهرته لم تتجاوز الزاوية[1]، ويقول أبو القاسم سعد الله أن اسمه هو إبراهيم بن أبي فارس عبد العزيز وكان يضاف له كلمة المدني لتوقيعه الرسمي وذلك إشارة إلى المدينة المنورة[2].

وتذهب بعض الروايات الأخرى إلى أنه من عائلة أولاد سيدي الشيخ، والمعروف أن نسبهم يعود لأبي بكر الصديق –رضي الله عنه– ومركزهم زاوية سيدي عبد القادر بن محمد الملقب بسيدي الشيخ الأبيض[3]، كما ينسب الشريف محمد بن عبد الله إلى بلدة العرينة بمعتمدية نفزاوة في تونس وينتمي للمزاريق، ولكن هذا القول عليه مآخذ لأن المشير أحمد باشا باي تونس يورد في رسالة وجهها إلى القنصل الفرنسي في تونس حول نشاط الشريف في الجزائر واتخاذه تونس قاعدة خلفية له بأنه يعرف أنه جاء من الغرب الجزائري وأنه طلب من أمير اللواء أحمد زروق طرده من تونس[4].

ما يؤخذ على هذه الروايات أنها كلها لم تدرج شجرة نسب الشريف لإثبات صحة ما تدعيه وإنما تهدف إلى التشكيك فيه والتقليل من دوره وقيمة مقاومته، كما لا تزودنا هذه المصادر بأي معلومة عن تاريخ مولده سوى أنه ولد خلال القرن 18م من دون تحديد السنة أو الشهر واليوم، ودون ذكر اسم والدته أو زوجته أو أولاده[5].

لم يكن للشريف محمد بن عبد الله تحصيل علمي كبير، بدليل عدم حصوله على إجازات علمية من جامع الأزهر بمصر، أو الزيتونة بتونس، أو القرويين بالمغرب الأقصى، وهي المنارات العلمية البارزة في ذلك الوقت[6]، بالإضافة إلى أنه لم يخلف تأليفا أو كتبا في الفقه أو الحديث أو غيرها من العلوم الشرعية أو الوضعية على حد سواء ولم يؤسس مكتبة أو زاوية أو مركزا علميا،

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

ولم يكن له تلاميذ يأخذون عنه العلم كغيره ممن تتلمذ على يدي الشيخ محمد علي السنوسي كأحمد زروق الذي توفي في مسراتة قرب طرابلس الغرب 1893[7] ولكنه قد حصل على قدر لا بأس به من العلم أهله لأن يكون معلما للقرآن الكريم في زاوية سيدي يعقوب المنتمية لأولاد سيدي الشيخ مما يدل على أنه كان حافظا للقرآن الكريم[8].

2/ محمد بن عبد الله وموالاته للفرنسيين:

في سنة 1841 كانت العلاقة متوترة بين مولاي الشيخ علي آغا الغسول والأمير عبد القادر فقرر الخروج عليه، ولإنهاء ارتداده بحث عن تأثير يمكنه أن يواجه به تأثير الأمير ووجد ضالته في محمد بن عبد الله، ومنذ ذلك الوقت جعل كل جهوده لتضخيمه ومنحه الاعتبار الذي كان ينقصه وترك المرتبة الأولى دائما له، وللتقرب من فرنسا اتصل بالعقيد طامبور الذي كان يحكم وهران وقتئذٍ وتعجل بالدخول في حملة لدعم حليفه الجديد[9].

وفي 15 ديسمبر 1841 تم اللقاء عند قبيلة بني عامر[10] في نواحي عين تموشنت وبحضور مولاي الشيخ بن علي والجنرال مصطفى بن سماعيل[11]، وشيع محمد بن عبد الله مائتا فارس وهم لا يمثلون إلا جزءا قليلا حسبه من "**القَوْمْ**" الذين تركهم في سبعة شيوخ وتم عقد نوع من التحالف الهجومي والدفاعي بين العقيد طامبور ومحمد بن عبد الله[12].

وفي هذا الصدد يقول س. ترواملي " ... وحتى لا نفقد ثمار المهزلة التي تخيلها مولاي الشيخ واصلنا في وصف محمد بن عبد الله بالسلطان، وفي انتظار أن يكون سلطانا وحتى نجعله يصبر عيناه خليفة على قبائل الغرب، فمرابط الغسول المسكين لم يتأخر في أخذ نفسه مأخذ الجد وأن يعتبر نفسه فعلا مؤثراً، ولاحظنا كيف صار مع كرامة النعامة أنه يترك الناس يقبلون ركبته أو قطعة من برنسه"[13].

أعطيت القيادة العليا فيما بعد للجنرال بيدو[14]، فقام باستدعاء كل قادة الأسلاك والخدمات في الثكنة يريد إعطاء بعض الأبهة لحفل قسم الولاء لفرنسا الذي كان مطلوبا من الخليفة الجديد أن يدلي به، رفض الخليفة محمد بن عبد الله القسم في البداية ولكن أمام إلحاح الجنرال قام بالقسم وبطريقة غير جدية حيث وضع أربع أصابع على المصحف بدل وضع يده كلها. تم تنظيم مخزنا

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

مركبا من الكراغلة تحت قيادة محمد بن عبد الله واتخذت المجموعة اسم **الميليشيا الأهلية لتلمسان**، إلا أن الخليفة كان يرغب في تضخيم المخزن بعناصر من اختياره حتى يستطيع في أي وقت شاء أن يطرد الفرنسيين من تلمسان ومن البلاد كلها، إلا أن الذين قام بإغوائهم خانوه وأخبروا الفرنسيين بكل شيء وأصبح تحت مراقبتهم[15].

كان محمد بن عبد الله يعتقد بأنه مدعو لان يكون له دورا كبيرا في البلاد وكان يقول للعرب "أن الله هو الذي بعثني هنا لأكون واسطة بينكم وبين المسيحيين، اعملوا ولا تبتعدوا أبدا عن سبيل الله لم أقم بالتحالف مع الفرنسيين إلا طاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي وضعني في الحلم فوق فرس، وهو علامة القيادة، اصبروا فاليوم قريب"[16].

3/ رحلته إلى الحج والتقاءه بمحمد بن علي السنوسي[17]:

صار محمد بن عبد الله يوما بعد يوم مزعجا والسلطات الفرنسية متخذة معه طول البال، انتهت بعدما أتعبتهم ادعاءاته ومبادلته للتهم ومؤامراته بأن تجعله يفهم بأنه يليق به أن يعيش من راتبه دون أن ينشغل بأي شيء من شؤون البايلك، وظهر أن الخليفة استسلم لهذا الأمر فلسفيا سنة 1842، وبقي بعض السنوات دون أن يجعل الناس يتحدثون عنه وفي سنة 1847 ثبتت الحجة عليه بأنه لم يتخلى عن ادعاءاته القديمة وأنه كان يدبر الدسائس فنصحته السلطات الفرنسية القيام بالحج، فغادر تلمسان مع نسائه وخوجته (كاتبه) السيد محمد بن علي والحقد في قلبه[18].

التقى محمد بن عبد الله بالشيخ محمد بن علي السنوسي في مكة سنة 1849، أين تتلمذ على يديه، كما استطاع إقناعه بالقيام بالثورة ضد المحتل الفرنسي، وبدأ الحس النضالي يتبلور لديه بتأثير من شيخه، خصوصا بعد فتوى الجهاد التي جاء بها ليون روش، فأخذ كل من محمد بن عبد الله وشيخه يراسلان رفاقهما وأصدقائهما بالجزائر وتونس وطرابلس، وتوجيه المبعوثين لنشر مبادئ طريقتهما وبث أفكارهما السياسية، وحث الناس على المقاومة[19].

عاد محمد بن عبد الله إلى الجزائر أواخر عام 1849م عن طريق طرابلس ماراً بغدامس، متجها إلى سوف التي بقي فيها إلى غاية سنة 1851، ثم استقر به المقام في واحة ورقلة وهذا

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

بتوصية الشيخ السنوسي وعزت باشا اللذين كلفاه بتحريض أهالي الصحراء، وقد أعطاه الشيخ السنوسي رسائل توصية لأهم قادة البدو والواحات والأولياء في ورقلة، ومن بين الرسائل كانت رسالة موجهة لعبد الله بن خالد أحد قادة المخادمة، وهو رجل ذو تأثير كبير في قبيلته نزل عنده محمد بن عبد الله [20].

ثانيا: مراحل مقاومة الشريف محمد بن عبد الله

1/ تنصيب الشريف محمد بن عبد الله سلطانا على ورقلة (مرحلة الإعداد والتحضير):

كانت ورقلة[21] في هذه الفترة التاريخية محط أطماع الباحثين عن الحكم، خاصة مشيخة آل بابية التي استفادت من الأوضاع السائدة في المنطقة، ووقعت تحالفات جديدة كانت تسعى من خلالها إلى السيطرة على حوض ورقلة، إلا أن مجموعة من العقلاء بقصر ورقلة عملت على الابتعاد عن هذه التحالفات السياسية مع المستعمر الفرنسي وحلفائه الجدد في المنطقة، وتحالفت مع زعماء المقاومة الشعبية الذين وجدوا في ورقلة مستقراً ضد الاستعمار الفرنسي بحكم البعد الجغرافي وسهولة الحركة وقبرها من ليبيا وتونس والجنوب الكبير[22].

بعد وفاة الحاج بن بابية ظن الورقليون أنهم تحرروا وتخلصوا من سيفه، إلا أن هذا الفرح لم يدم طويلا حيث عين ابنه الأكبر الشيخ بوحفص لخلافته، وفهم الورقليون أنه عليهم أن يتحضروا من جديد للكفاح، ولن يكون هذا إلا بتوحيد الأحياء الثلاثة تحت قائد واحد، واتجهت أنظارهم إلى محمد بن عبد الله الذي كان يعيش منعزلا، ومشهورا بالتقوى وفي منتصف شهر أوت 1851 جاء وفد من الأحياء ومن القصور المجاورة والبدو لمنح السلطة لمحمد بن عبد الله الذي كان في الصلاة عند وصولهم، وبالفعل تم ذلك وأصبح محمد بن عبد الله سلطان ورقلة وبسرعة ترك المنزل المتواضع لصاحبه وذهب ليسكن القصبة"[23].

استطاع محمد بن عبد الله أن يكسب تأييد شيوخ بعض القبائل الصحراوية مثل شيخ قبيلة الأرباع بن ناصر بن شهرة[24]، وسي النعيمي من أولاد سيدي الشيخ، كما استطاع استمالة قبيلة سعيد عتبة والمخادمة والشعانبة[25] وبني ثور[26]، وانضم سكان ورقلة بدواً وحضراً إلى مقاومة

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

الشريف بن عبد الله، وتحالفت المشائخ الدينية من الزوايا والعزابة والمشائخ السياسية مثل آل علاهم بورقلة وآل بابية الرافضين الخضوع للمستعمر[27].

2/ مقاومة الشريف محمد بن عبد الله (مرحلة التوسع والقوة):

أول ما قام به محمد الشريف بن عبد الله واستعماله لسلطته غزوه بدون شفقة لتقرت التي عانت تحت رعاية بن جلاب[28]، ودخل إلى ورقلة وهو يحمل الغنائم، وبعد هذا قام أهل متليلي بإرسال قادة له (وهو حصان يقوده رجل في الأمام وهو رمز الاستسلام والتبعية في إفريقيا) وهذا النجاح أخاف الشيخ بوحفص ودفع به للفرار إلى الشمال حيث وصل إلى تيهرت يوم 12 ديسمبر 1851، وأكد للفرنسيين خبر الغزوة الأولى للسلطان على أولاد مولات[29].

بعد التفوق الذي حازه على أهل تقرت، وهو تفوق لم يكن إلا بفضل التفوق العددي لجنوده، لم يعد سلطان ورقلة يشك في أي شيء، وفي ديسمبر 1851 وقبل أن يذهب إلى حملة جديدة وليكون متأكدا أنه لم يترك وراءه أي عنصر عداوة قبض على عائلة الشيخ نقوسة وبعد زمن قليل ألقي القبض على بوحفص نفسه وعلى أخويه وأرسلوا إلى الرويسات وهو قصر صغير يبعد عن ورقلة بأربع كيلومترات وبما أن محاولته نحو الشمال لم يكن النجاح الذي وعد به نفسه، غار الشريف لدى مروره وبصفة تعويضية أحد دواوير أولاد ساعد بن سالم من قبيلة أولاد نايل ثم اتجه إلى بريان وهو قصر من ميزاب[30]، ورجع الشريف بن عبد الله إلى ورقلة وعين الشيخ الطيب بن بابية رئيسا لنقوسة عوضا عن أخيه بوحفص الذي رفض الاعتراف به[31]، وحسب ما أورده تروملي فإن الشريف محمد بن عبد الله كان يدعي بأنه سحر القائد المسيحي لتيهرت بحيث لا يستطيع لا هو ولا قومه الخروج من المكان الذي هم فيه لأنهم مربوطون بأربطة خفية[32].

وفي فيفري 1852 صعد السلطان إلى الشمال ليبحث عن الحظ، والتقى بحلف الآغا سيدي الشريف من أولاد نايل وهو أحد أولاد "**الدين**" خليفة الأغواط بجبل العمور، طرد على إثرها إلى الجنوب فاستحى أن يعود فارغ الوضاب، فقاد هجوما على ميزاب وتحصل فيها على بعض الغنائم وخسر فيها خليفته الذي أصيب فيها برصاصة قاتلة، وفي شهر مارس حاول التسلل مجددا إلى الشمال، ولكن تواجد مفرزة فرنسية في نواحي الأغواط[33] جعلت مشاريعه تتبخر، فارتمى إلى الغرب لغزو أولاد يعقوب الزرارة الذين باغتهم وهم على وادي زرقون[34].

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

وعندما رأى الشريف أنه لا يستطيع شيئا جنوب مدينة الجزائر، ارتمى على الزيبان على أمل أن يستقر في واحات هذا الجزء من مقاطعة قسنطينة وبما أنه كان عاجزا أمام جدران تقرت، رأى بأنه من المفيد لسياسته أن يجعل من شيخ هذا القصر حليفا له وادخله في المصالحة. وفي يوم 22 ماي 1852 ظهر محمد بن عبد الله ومعه 600 فارس و2500 من المشاة على الجمال أمام متليلي وهو قصر صغير يقع على 6 فراسخ جنوب بسكرة، وقام الرائد **كولينيو** بمفاجأته وانتصر عليه وقتل له 150 رجلا ورمى به في الجنوب واختل نظام السلطان وفر إلى ورقلة، كان هذا أول احتكاك بين الشريف بن عبد الله والقوات الفرنسية ما دفع به إلى إعادة التفكير في إخراج الفرنسيين من التل[35].

كان لابد للشريف محمد بن عبد الله من أخذ الثأر ليرفع معنويات أنصاره وليحافظ على أولويته، وأصبح لا يفكر إلا في انتزاع الأغواط من أولاد الخليفة أحمد بن سالم ونصب خيامه في قصر الحيران والتجأ إليه يحي بن محمد واقترح عليه الاستيلاء على الموقع بتظافر الوسائل التي كانت بحوزة الشريف بن عبد الله مع مجهودات الأنصار المنتمين إلى يحي في المدينة، قبل الشريف بسرعة هذا الاقتراح الذي وفره له أخ الخليفة أحمد بن سالم وجاء يوم سبتمبر 1852 إلى غاية أسوار الأغواط، ولكن تحرك الجنرال يوسف قلب كل مشاريع يحي بن محمد وسلطان ورقلة الذي تحتم عليه مرة أخرى الرجوع إلى الجنوب، وعند وصوله إلى مقروبة من القرارة استطاع محمد بن عبد الله أن يجمع مابين 1200 إلى 1500 فارس من الأرباع وأولاد نايل المتمردين، وبخطى سريعة ذهب في أكتوبر 1852 إلى جبل العمور وانقض على الآغا جلول، آغا قبيلة العجلات مثل العقاب وغزاها وعاد من جديد إلى الجنوب وهو يحمل غنيمته[36].

وفي 04 أكتوبر 1852 فاجأ الجنرال يوسف الشريف بن عبد الله عند أطراف "**عين الرق**" في منطقة غدير وادي مزي فقتل له 200 رجل وأخذ منه 2000 جمل و20 ألف راس غنم[37]، وكي ينجو الشريف من مطاردة الفرنسيين لجأ إلى الأغواط أين تم استقباله بحماس من قبل السكان اللذين انهوا تواطؤهم مع الفرنسيين وطردوا أولاد سالم من المدينة[38].

تقدم الجنرال يوسف أمام المدينة وطلب الدخول، لكن السكان استقبلوه بإطلاق النار، وقام الجنرال بالرد على هذا وقتل منهم ما يقرب 100 ولكن الضعف العددي لمفرزته لم يسمح له

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

بالاستيلاء على المدينة، فقام قائد مقاطعة المدية بالاستنجاد بالجنرال بيليسيه الذي انتقل من البيض يوم27 نوفمبر 1852 على رأس 8 كتائب و8 سرايا من الخيالة ومدفعيته وصل يوم 2 ديسمبر إلى أسوار الأغواط وأخذ قيادة كل القوات المتجمعة حول القصر[39].

في يوم 3 ديسمبر قام بعملية استطلاع حول أسوار المدينة، وفي يوم 4 ديسمبر تعرض الجنرال بوسكران إلى نيران المحاصرين وهو قرب الجنرال بيليسيه[40]، فأصيب برصاصة كسرت عظم فخذه فوق الركبة وبعد 15 يوم تم بتر الرجل ما أدى إلى وفاته، قامت المدافع بفتح فجوات في أسوار المدينة وتم الاقتحام على إثرها وقتل حوالي 12 ألف في هذه المعركة التي أفزعت نتائجها الصحراء، أما الشريف بن عبد الله فقد استطاع أن يفر من المدينة[41].

بعد هذه الهزيمة لم تعد شؤون شريف ورقلة لديها صدى وبدأ أنصاره يشكون فيه والقبائل التي خضعت له بدأت تشعر بخطر الفرنسيين يحوم حولها، فقزموا أنفسهم وتجنبوا الحديث عن الجنود الذين رافقوا الشريف في معارك الأغواط، وبعد مدة علم الشريف من جواسيسه تراجع الفرنسيين عن بعض المناطق، فانتقل بسرعة إلى الشمال ووصل إلى غاية عقلة المنيعة[42] دون أن يثير الانتباه وانقض مثل البرق على أولاد سيدي طيفور بجبل العمور، الذين جردهم من خمس قطعان من الغنم وأربعين بعيرا وخمسين ثوراً[43].

انسحب الشريف إلى تاجرونة[44] التي استقبلته ببنادقها وغار وهو مارا على شرق الأغواط على فرقة من أولاد نايل وأخذ لهم 12 قطيعاً من الغنم[45] دون أن يسأل إن كانوا أصدقاءه أو أعداءه[46]، وعندما علم الفرنسيون بهذه الأعمال خرج جيريفيل مع مائة قناص أهلي و50 رجلاً من الكتيبة الأولى الخفيفة للمشاة الأفارقة على الجمال وذهب إلى سيدي طيفور، والآغا جلول من جبل العمور توجه نحو الخنق[47] على رأس 500 فارس من "القوم" لملقاة الشريف بن عبد الله ولكنه لم يلقه فرجع على خطاه، ولتفادي الرجوع لمثل هذه المفاجآت أحدثت مراكز للحراسة ووضعت محطات على قمم جبل العمور لإشعال النيران وإخبار القبائل بقدوم العدو وتجنيد الآغا جلول وإلزامه بحراسة إقليمه جيداً[48].

3/ التوسع الفرنسي في الجنوب والقضاء على الشريف (مرحلة التراجع والضعف):

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

إن الخرجات المتكررة لمحمد الشريف بن عبد الله قد أثارت حفيظة الفرنسيين وقرروا وضع حد لغاراته المتواصلة بقيادة الوالي العام الجديد راندون[49] (Randon) 1852-1853م والقيام بهجوم كبير على واحات أقصى الصحراء بجنود من المقاطعات الثلاث تتبعهم مفرزات متحركة من شأنها حمايتهم في حالة الهزيمة، واتخاذ مجموعة من الإجراءات للحد من نشاط لمقاومة وهي كالتالي:

- ضرورة التحكم في الصحراء باعتبارها مصدر القلاقل والاضطرابات.

- العمل على ربط علاقات تجارية مع إفريقيا الغربية ومنافسة السلع الإنجليزية التي تصل إلى غينيا والمغرب وليبيا ومصر، وكذا احتكار المغرب وليبيا للتجارة مع السودان.

- دعم الشيوخ والباشاغاوات والطرق الصوفية مالياً ومادياً ومعنوياً لمحاربة الفكر الجهادي الذي تنشره الحركة السنوسية، وعلى رأسها الشيخ الإمام السنوسي الذي كان الداعم الأكبر لجهاد الشريف محمد بن عبد الله[50].

واستطاع العقيد دوريو إقناع الجنرال راندون بتوجيه حملة للقضاء على الشريف بن عبد الله وإسناد قيادتها إلى سيدي حمزة[51]، الذي بدأ بتنفيذ المخطط بدون تأجيل إلى جانب قائد حصن جيريفيل[52]، وبداية من شهر نوفمبر 1853 بدأ جنود دائرة معسكر وتيهرت وفرسان قبائل أغواط الكسل والقصور والأرباع والشلالة والغسول وبريزينة للاجتماع في جيريفيل، وانتظار الخليفة سيدي حمزة لقيادة هذا الجيش الذي بلغ ألف فارس وألف من المشاة، إلا أن سيدي حمزة كان مترددا بعض الشيء في قيادة هذه الحملة وغير متأكد من نجاحها، ولكن المقدم م. دو. سي[53] استطاع إقناعه بانتصاره على الشريف وأنه سيرجع مجددا وحاملا الغنائم[54].

وطبقا لهذه الخطة تم احتلال الأغواط بقيادة الجنرال بيليسيه (Pelissier) في 1852/12/02 وعوقب السكان ونكل بهم وأباحوا البلاد للجنود فعاثوا فيها سلبا ونهبا، وبعد احتلال الأغواط سارعت فرنسا إلى مطالبة بني ميزاب بتوضيح موقفهم من السلطة الفرنسية، خاصة وأنها كانت تعلم بأن أسواق ميزاب كانت مصدر تمويل الثوار، ولهذا بعث الوالي العام

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

برسالة إلى جماعة بني ميزاب يوم 24 أكتوبر 1852م لعقد معاهدة تضمن اعتراف السكان بالسلطة الفرنسية، وانطلق وفد ممثل للقرى والعشائر المزابية ووقع معاهدة مع الكومندان ديباري (Dibari) يوم 22 أفريل 1853م تضمنت الاعتراف بالسلطة الفرنسية وحقها في بسط حمايتها على الميزابيين، مقابل دفع لازمة سنوية، وتتعهد فرنسا بضمان حريتهم التجارية وبقاء عوائدهم وأعرافهم وشؤونهم الدينية والقضائية بأيديهم[55].

وصل سي حمزة إلى بريزينة يوم 5 نوفمبر 1853 ثم وادي زقار وفي 9 نوفمبر خرج منها متوجها إلى متليلي حيث دخلها بدون مشاكل تذكر وبدون مقاومة أنصار شريف، بل صرخوا له بكل قوة: "**مرحبا بك بيننا**" واستطاع سي حمزة أن يفصل قبيلة قوية عن قضية الشريف، كما قام بتجاهل تهديدات الشريف الذي كتب له "**تخلى عن مشروعك يا حمزة المارق وإلا فانك ستموت ملعونا بالهرب أمامي**"، وبقي في متليلي 18 يوما لدراسة الأوضاع بها[56].

وعندما أحس سلطان ورقلة باقتراب العدو بدأ يتحرك ويجوب الدواوير والقصور قائما بنداء أسمى للمسلمين وهو يحاول أن يلهب شجاعة ذوي الأكباد وإثارة حماس الفاترين بوعود قابلة للانجاز في هذه الدنيا وفي الآخرة، لاحظ الشريف أن الفراغ بدأ من حواليه وأنه لم يعد يشك بأن الشعانبة بوروبة والمخادمة وأولاد سعيد سيتخلون عنه[57].

استطاع الشريف بجهد جهيد أن يجمع 4 آلاف رجل تقريبا تحت إمرته وعلى سبيل الاحتياط قام بإرسال الأمتعة نحو الجنوب التي لا يمكن لقصبة الرويسات حمايتها بفعالية بعد أن طلق النساء اللائي تزوجهن في البلاد وهو يريد جعلهن في مأمن بإرسالهن في اتجاه أمتعته مع الإبل وقطعان القبائل، وتم إخبار سيدي حمزة بهذه الهجرة من قبل جواسيسه، فقرر أن يخفف من مؤنه التي يتركها في نقوسة تحت حراسة 600 من المشاة وأن يلحق بسرعة بقطعان وأمتعة الشريف.

بينما كان سيدي حمزة يقوم بهذه الحركة أخذ محمد بن عبد الله تدابيره ليفاجئ خصمه الذي مازال يظن أنه في نقوسة، فانطلق على العاشرة مساءا إلى شجرة وهم يزحفون مثل الثعابين إلى غاية الحدود الداخلية التي تغطي القصر شرقا[58]، وعلى مسافة 100 متر من التحصينات وأمام مؤونة العدو غير المحروسة وفي ظل عدم وجود أي سلاح يلمع أو برنس أبيض أعطى الشريف إشارته لبدأ الهجوم، فهبوا رجاله كلهم بتهور نحو التحصين الذي كان ارتفاعه على (1.30 م)،

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

ولكن فجأة قام 200 نقوسي كانوا نائمين على بطونهم. وهم يصيحون وبدأو في إطلاق النار على رجاله، ومن وسط الغرائر[59] حيث كانوا مختفين بمهارة خرجت حشود من المدافعين وهم يطلقون النار عليهم، فانسحب رجال الشريف باتجاه حدائق النخيل مواصلين إطلاق النار على النقوسيين المحتمين بأسوارهم ولكن بدون نتيجة[60].

إن الإجراءات التي اتخذها الشريف كانت منظمة بدقة وكانت له حظوظ كبيرة للنجاح، لكن امرأة كبيرة من أقارب سيدي حمزة استطاعت أن تهرب من ورقلة وأن تحذر النقوسيين من مشاريعه، وبعد أن توقفت البنادق من إطلاق النار وانتهى البارود، ظهر اضطراب في صفوف الشريف، وبعد مدة فهم رجاله أنهم لم يواجهوا إلا عددا قليلا من مشاة سيدي حمزة بينما أغلب رجاله يهددون عائلتهم وأموالهم، فدبّ الذعر بينهم ولم تنجح دعوات بن عبد الله وتوسلاته لتهدئتهم وتوحيدهم، وتوجه أهل ورقلة إلى مدينتهم للدفاع عنها، وأولاد سعيد عتبة[61] والشعانبة بوروبة والمخادمة ذهبوا إلى مخيماتهم حول القصر بينما الأرباع وأولاد نايل والحرازلة فإنهم حملوا الشريف إلى الجنوب معهم نحو قطعانهم ودواويرهم المهددة[62].

وسيدي حمزة دون أن ينشغل بما يجري خلفه تبع بثبات آثار الهجرة لفترة طويلة، التقى بعدها بفرسان أولاد زياد والشريف بن عبد الله وبن ناصر بن شهرة، لكنه لم يهاجمهم خوفا من الأضرار التي تنجم عن معركة الليل واكتفى بمراقبة الشريف ومتابعته خطوة بخطوة ومناوشته بدون انقطاع إلى غاية الفجر[63]، أما الشريف بن عبد الله فكان يدفع مشاته بنشاط ليصلوا إلى كثبتين عظيمتين تسمى بوسروال[64] قد أبرزهما عن بعد نور ضئيل من الليل في الاتجاه الذي كان يتبعه وتعجل في انتهاز الوقت الذي بقي له قبل طلوع الفجر لينظم جنوده[65].

وحول هذه المعركة يقول ترومللي: "سنرى على ميدان هذه المعركة وقائع حرب غريبة لا تمنح لنّا حروبنا الأوربية نموذجا منها، كفاح قاس في وسط الصحراء، لا شاهد فيها إلا الله والشيطان، فريقان تائهان في شساعة الصحراء يجب أن يصطدما، مسلم ضد مسلم وهذا لصالح فرنسا، التي بواسطة سيدي حمزة سيعطي مقدار قوة ذراعها لهؤلاء السكان الذين لا يعرفونها إلا بالاسم تقريبا"[66].

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

أمر سيدي حمزة "القَوْم" بمناوشة العدو وإقلاقه من أسفل الكثبان بحيث يجعلونه يعتقد بأن ذلك هجوما جديا وجعلهم يستهلكون ذخيرتهم، ومع طلوع النهار انطلق سيدي حمزة على رأس مشاته لتسلق كثيب رملي مثل الزوبعة، ترك مشاة الشريف أهل ستيتن[67] يصلون دون إعطاء أي إشارة وحتى تنهك صعوبات الصعود حماس المهاجمين وأن يكونوا متوغلين في الرمال، ثم فجأة استضاءت قمة الكثيب بتاج من النيران وأصبح الرمل يشرب الدم بشراهة وامتلأ الكثيب بالجثث وضعفت مشاة سيدي حمزة بسبب الصعوبات[68].

حاول مشاة الخليفة مجهودا مرة أخرى ولكن هجومهم كان مرتخيا فتقهقروا وأداروا ظهورهم وانسحبوا في فوضى يبحثون عن ملجأ وراء الفرسان، حاول الخليفة أن يحضرهم ويشجعهم على العودة للقتال واتبعه قريبه سي قدور ليغطيه، وانطلق المشاة بعد تحريضهم في الهجوم دون أي كلام ودون إطلاق أي رصاصة واستطاعوا الصعود إلى أعلى الكثب رغم نيران المحاصرين وسيدي حمزة على رأسهم وصار القتال بينهما بأخمص البنادق وبالسيوف[69].

تم التعرف على سيدي حمزة من الحاج الطيب من بني مايدة الذي بعد أن أفرغ عليه سلاحه مباشرة شده من برنسه وحاول إسقاطه فتخلص منه الخليفة بتفجير رأسه بمسدسه، وفي نفس الوقت تلقى ضربة عصا كسرت له السنتين القاطعتين من الفك العلوي، وبقي على حصانه وهو يعجن الجثث باستمرار، جاءت رصاصة لتكسر قدم حصانه فتكور مع فارسه في وحل من الدم والرمل، وقام أهل ستيتن بإنقاذ سيدي حمزة بعد أن تكسرت بندقيته وثقب برنسه، وبعد مدة من الثبات انسحب أنصار الشريف بعد أن أنهكهم التعب وأرهقهم الضرب[70].

كان اللقاء قاسيا وفتاكا وكانت الخسائر ملموسة من كل جانب، فقدْ فقَدَ كل من أهل ستيتن وبريزينة وقوم أولاد زياد والرزيقات والدراقة أشجع فرسانهم ومغاويرهم، أما الشريف فقدْ فقَدَ أحد رجاله المتميزين الحاج الطيب الذي قتله سيدي حمزة، وأحد قادته الأكثر تأثيراً بن ناصر بن شهرة الذي كان مردوما تحت جثث أهله بعد أن ثقب فخذه برصاصتين. بدأ سيدي حمزة يتهيأ للقتال مرة أخرى وهو يبحث عن حل لتجميع جنوده مرة ثانية ولكنه لم ينجح، وبعد جهد جهيد استطاع أن يشكل جنوده، وعند إعطاء إشارة معاودة القتال وإذ بثمانية رجال على الأقدام يتقدمون نحوه

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

وهم يقودون حصان الاستسلام وهم يصيحون: "**باسم الله وباسم العدالة يا سيدي حمزة نطلب منك الأمان، نحن نطلب أن نأتي تحت رايتك وتحت راية فرنسا**"[71].

وافق سيدي حمزة على إعطائهم الأمان بشرط أن يأتوا بعد عشرة أيام مع عائلاتهم وقطعانهم ليخيموا جوار نقوسة ليخضعوا لكل ما تفرضه عليهم السلطات الفرنسية، ورافق رجل من المقربين الوفد إلى غاية معسكرهم للتأكد من قبول بن الناصر بن شهرة المجروح على الشروط المفروضة. باختصار فان استسلام الشريف كان حدثا سعيدا لأن موقعه كان يسمح له بمواصلة القتال لفترة معينة خاصة وأن المهاجمين كان عليهم الانسحاب إلى نقوسة بعد فقدانهم للماء[72].

انطلق سيدي حمزة إلى نقوسة وهو يحمل موتاه، وعندما وصل غاية البكرات على ثلاث فراسخ جنوب ورقلة رأى جمهورا كثيرا يتقدم في اتجاهه وهم المخادمة وأولاد السعيد عطية، والشعانبة الذين حملوا له أحصنة الاستسلام، وتدافعت الحشود أمام الخليفة من أجل تقبيل ركابه أو ركبتة وهم يصيحون بكل قوة "**الله يرفعك نحن خاضعون ونحتمي تحت رايتك**". أما عن الشريف فقد أكد البعض أنه هرب بعد المعركة وقد تبعه في ذلك فارسان أو ثلاثة فقط متجها ناحية نفطة بتونس، ولكن الأكيد هو أن سيدي حمزة قد ترك الشريف يفر، لأن أحد حفدة سيدي الشيخ والوارث لسلطته الدينية لا يستطيع بكل إدراك أن يلقي القبض على مرابط ويسلمه للفرنسيين دون أن يتعرض للوم الردة الذي رماه على وجهه[73].

وبذلك انتهت سلطنة ورقلة على يد حمزة بن بوبكر، ودخلت تحت النفوذ الفرنسي بتاريخ 27 جانفي 1854م، وقد توافق مع دخول الكولونيل دوريان (Durrien) إلى المنطقة لتسلمها من سي حمزة بن بوبكر إيذانا بخضوعها للفرنسيين، والتزام السكان بدفع ضريبة سنوية قدرت بـ 2000 فرنك، وبموجب هذا الانتصار عين سي حمزة خليفة على الصحراء الكبرى من البيض إلى ورقلة، وعين أخوه سي الزبير آغا على ورقلة[74].

وفي شهر سبتمبر 1854 استطاع أن يجمع قَوْماً من مائة حصان وخمسة أو ستمائة من المشاة المسلحين ومعهم شيخ تقرت سلمان بن عايل بن جلاب حليفه الجديد فأرسله إلى كونفدرالية ورقلة التي استقبلته، ولكن عند الإعلان عن اقتراب وصول آغا الفرنسيين السيد **الزوبير** قرر الشريف الذهاب إلى وادي ريغ، وعندما انهزم سلمان ومحمد بن عبد الله في مقرين من طرف

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

مفرزة فرنسية في الأيام الأخيرة من نوفمبر فرا إلى تونس، واستطاعت القوات الفرنسية الدخول إلى تقرت في 02 ديسمبر 1854م وعينت علي بن فرحات بن سعيد من عائلة بوعكاز حاكما على تقرت وسوف[75].

أما الشريف فقد بقي في تونس إلى غاية 1858 حيث كان تحت الإقامة الجبرية ثم أفلت من الحراسة وتوجه إلى توات[76] حيث استطاع أن يجمع بعض المئات من المتطوعين الذين دخل بهم نواحي الأغواط في 14 سبتمبر 1861 وطارده سيدي بوبكر بن سيدي حمزة على رأس 300 حصان فأصيب وتم حصاره في العروق (الكثبان) فأسر وحمل إلى فرنسا وسجن[77].

لكن الشريف محمد بن عبد الله لم يلبث أن ظهر على مسرح الأحداث من جديد يوم 10 سبتمبر 1864 مشتركا بالهجوم على واحة ليانة في الزاب الشرقي مع قبيلة أولاد خليفة، ثم توجهوا إلى نفطة بتونس أين التقوا بثوار أولاد سيدي عبيد وقادوهم في 20 سبتمبر إلى اقتحام مقرين[78]، وبعد اندلاع ثورة المقراني سنة 1871 انضم إليها، ولم يلبث الشريف محمد كثيرا بمنطقة نفطة ونفزاوة ليغادر في 12 أكتوبر 1871 متجها نحو واد بودوخان ثم منطقة الكاف التونسية بعد أن ضعف نفوذه وقل أتباعه[79].

خاتمة:

لقد قامت ثورة الشريف محمد بن عبد الله بتأخير التوسع الفرنسي نحو الجنوب لردح من الزمن حيث دامت مقاومته حوالي 20 سنة، كما استطاع إنهاك السلطات الفرنسية على كافة الأصعدة رغم عدم تكافؤ موازين القوى من حيث العتاد والتخطيط والتنظيم، ما دفع بالفرنسيين إلى استخدام طرق وأساليب سياسية واقتصادية واجتماعية لأجل إجهاض هذه المقاومة بعد جهد كبير جداً، وقضت فرنسا بعد دخولها إلى الصحراء على الأنظمة الملكية الوراثية والقديمة التي كانت موجودة كأسرة بني بابية وأسرة بني جلاب وغيرها من الأسر، إلى جانب هذا فقد استطاعت أن تستميل شيوخ الطريقة التيجانية من أجل خدمتها ودفع الأهالي إلى مسالمة الفرنسيين وقبول حكمهم.

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

الهوامش:

1 – س. ترومللي، **الفرنسيون في الصحراء "يوميات حملة في حدود الصحراء الجزائرية**، تر: محمد المعراجي، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، غرناطة للنشر والتوزيع، 2013، ص 70.

2 – أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900**، ج1، ق 1، عالم المعرفة، الجزائر، ط خ، 2009، ص 357.

3 – **سيدي الشيخ الأبيض 1533-1616:** هو العالم والولي الصالح عبد القادر بن محمد بن سلمان بن بوسماحة تعود أصوله إلى أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– ولد يقصر العرباوات بين البيض والأبيض سيدي الشيخ وقد دفن بالأبيض التي سميت منذ ذلك الحين بالأبيض سيدي الشيخ نسبة إليه. ينظر: إبراهيم مياسي، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934**، دار هومة، الجزائر، 2000، ص ص 210-211.

4 – يحي بوعزيز، **كفاح الجزائر من خلال الوثائق**، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص ص 101-116.

5 – رضوان شافو، **مقاومة منطقة تقرت وجوارها للاستعمار الفرنسي 1852-1875**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2006-2007، ص 31.

6 – أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 352.

7 – يحي بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، ج1، دار الهدى، الجزائر، 2004، ص 218.

8 – يحي بوعزيز، كفاح الجزائر من خلال الوثائق، ص 103.

9– س. ترومللي، المصدر السابق، ص 70.

10 – **بني عامر:** من أقوى القبائل في منطقة وهران تمتلك أراضي واسعة يشتهر رجالها بزراعة الحبوب وتربية جميع أنواع الحيوانات أخلصت للأمير وحاربت الفرنسيين، ومن أبرز زعمائها محمد ولد الطامي. ينظر: عائشة بن ساعد، **البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر الجزائري**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2003-2004، ص 234.

11 – **مصطفى بن سماعيل:** قائد وشيخ قبيلة الدواوير والزمالة، ينتسب إلى أولاد ابن عفان من محال أولاد بوبكر كان لخيانته أشد الوقع على مقاومة الأمير عبد القادر، وقد استعد على رأس قوات عظيمة لضرب الأمير مع حاكم تلمسان سي حمادي. ينظر: إتين برونو، **الأمير عبد القادر الجزائري**، تر: ميشيل خوري، دار عطية للنشر، بيروت، ط1، 1998، ص 199.

12 – س. ترومللي، المصدر السابق، ص 71.

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

13 – المصدر نفسه، ص 71.

14 – **بيدو (Marie Alphons Bedeau):** جنرال فرنسي ولد في فيرتو (Vertou) سنة 1804، قاد العديد من الحملات في منطقة تلمسان وشرشال اوالمدية ومليانة، شغل منصب الحاكم العام لمدة من الزمن، وتوفي سنة 1863. ينظر: بسام العسيلي، **الأمير عبد القادر الجزائري**، دار النفائس، بيروت، ط خ، 2010، ص 141.

15 – س. ترومليي، المصدر السابق، ص ص 73- 74.

16 – المصدر نفسه، ص 75.

17 – **محمد بن على السنوسي :**هو الشيخ محمد بن على السنوسي بن العربي بن محمد بن عبد القادر بن شهيدة ، بن حم بن يوسف بن عبد الله، بن خطاب بن على بن يحي بن راشد بن أحمد المرابط ابن منداس بن عبد القوى بن عبد الرحمن بن يوسف بن زيان بن زين العابدين يوسف بن حسن بن إدريس بن عبد الله الكامل ابن الحسن المثني بن الحسن السبط بن على بن أبي طالب الهاشمي القرشي، ولد 1202 هـ/ 1787م يوم الاثنين الموافق لثاني عشر ربيع الأول ، ولذلك سماه والده محمد ، ولد بضاحية "**ميشا**" الواقعة ضفة وادي شلف الواسطة التابعة لبلده مستغانم بالجزائر تولت عمته فاطمة تربيته وتنشئته بعد وفاة والده بعد عامين من ولادته، حصل علومه الأولى من شيوخ مستغانم حيث حفظ القرآن الكريم مع القراءات السبع ثم تولاه ابن عمه الشيخ محمد السنوسي بعد وفاة عمته بالطاعون .قصد العديد من المدن أهمها فاس بالمغرب الأقصى، أصبح مدرسا فيها بالجامع الكبير ونال المشيخة الأولى بها، ثم انتقل إلى المشرق وأقام بمكة وتوفي فيها عام 1859م عن عمر يناهز 80 سنة، ترك عدة مؤلفات تقدر بنحو 30 مؤلفا. ينظر : محمد فؤاد شكري، **السنوسية دين ودولة** دار الفكر ، ط 1 ، 1948، ص 14 ، وينظر: عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر**، ص 180.

18 – س. ترومليي، المصدر السابق، ص 76.

19 – يحي بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين 19 و20**، ج1، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ط2، ص 151.

20 – س. ترومليي، المصدر السابق، ص ص 79-80.

21 – **ورقلة:** مدينة تقع في منخفض وهي منذ قرون تعتبر مركز تجاري مهم حيث يملكون تجارة كبيرة وهم يتاجرون دائما مع أغاديس والسودان، وبها حوالي 100 ألف ساكن، تجارتهم تعتمد على إنتاج التمر وصناعة القماش، وبعض المنتوجات الأوربية والقهوة والسكر ...إلخ، التي تأتي إلى ورقلة عن طريق منطقة مزاب، كانت أولى البعثات الاستكشافية إليها بعثة الرحالة الجنرال دوماس (Daumas) الذي زارها سنة 1842، حيث حدد موقعها الجغرافي ووصف مدينة ورقلة والقصبة وحدد أبواب المدينة. ينظر: Paul Soleillet, **L'Afrique Occidentale** « **Algarie, Mzab, Tidikelt** », Avignon, Imprimerie De F Seguin Ainé, 1877, pp 185-186

22 – الأزهاري عباز، **نظام المشايخ في ورقلة بين العهدين العثماني والفرنسي**

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

خلال 1603-1884، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي، 2014/2013، ص 58.

23 - س. ترومليي، المصدر السابق، ص ص84_87.

24 - **بن ناصر بن شهرة بن فرحات 1804-1883:** من قبيلة المعامرة إحدى قبائل الأرباع ولد بقرية المخرق جنوب الأغواط، كان من المجاهدين الذين حملوا لواء المقاومة ضد الفرنسيين، حيث قاد ثورة الأرباع منذ 1851 إلى غاية 1875 ينظر: إبراهيم مياسي، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934، ص 136.

25 - **الشعانبة أو الشعامبة:** مفردها شعامبي وهم يشكلون قبيلة كبيرة يشغلون المنطقة الصحراوية الكبيرة من ورقلة والقليعة ومتليلي، يتفرعون إلى أربع أقسام، قسمين هما شعامبة المخادمة وشعامبة الرياح، وهم موجودين بورقلة، وشعامبة موهادي شرق القليعة، والرابعة هم شعامبة برازقا بمتليلي، وقد تعرف صولييه أثناء إقامته بالأغواط وبني مزاب بشخصيات مهمة من هذه القبيلة التي تملك الطريق التجاري من الجزائر إلى تيدكلت، وقبائل الشعامبة هم رحل، ولديهم قطعان كثيرة ولا يبتعدون كثيرا عن المدن التي يتواجدون بها، وهم يرتحلون مرتين في السنة للتخييم حول الواحات الأولى عند زج صوف الأغنام، والثانية عند قطاف التمر. ينظر: Paul Soleillet, Op-Cit, pp 85-87.

26 - **بني ثور:** إحدى قبائل المخادمة كان مجال تنقلها جنوب شرق ورقلة في اتجاه قاسي الطويل وغدامس. ينظر: عبد الحميد زوزو، **الوضع في منطقة ورقلة قبيل الاحتلال الفرنسي**، مجلة الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، مج 16، 2011، ص 110.

27 - الأزهاري عباز، المرجع السابق، ص 58.

28 - **بني جلاب:** أسسوا سلطتهم بمدينة تقرت في القرن العاشر أواخر العهد الزياني واستولوا على وادي ريغ، اتسعت تقرت واشتهرت على عهد بني جلاب فأقيمت بها القصور والجوامع التي أسسها بعض المهندسين التونسيين. ينظر: عثمان كعاك، **موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 301.

29 - س. ترومليي، المصدر السابق، ص 92.

30 - **ميزاب:** وهي عبارة عن كونفديرالية مكونة من سبعة قصور تقع في أربع واحات، تقع على بعد 600 كلم جنوب الجزائر تحدها الأغواط من الشمال ومتليلي من الجنوب، أولى واحاتها من الشمال هي بريان التي تبعد عنها بحوالي 40 كلم، موقعها الفلكي حدد سنة 1850 من طرف م.رونو (M.Renou) يوجد بها حوالي 4 إلى 5 آلاف ساكن تنتج أحسن أنواع التمور في كل ميزاب، وهي مقسمة على أربع قصور يبعد كل قصر عن الآخر بـ 4 إلى 6 كلم، وهي تشكل مربع ومبنية فوق رابية، وهذه القصور هي غارداية، بن يزقن، بونورة، مليكة، العطف، القرارة وبريان ينظر: Paul soleillet, Op-cit, p 69.

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

31 – س. ترومللي، المصدر السابق، ص ص 95- 96.

32 – المصدر نفسه، ص 97.

33 – **الأغواط:** وهي جمع لكلمة غوط التي تعني المساكن المحيطة بالبساتين، ويرى ابن خلدون أنهم فخذ من قبيلة مغراوة في نواحي الصحراء ما بين الزاب وجبل راشد، ولهم هناك قصور مشهورة بهم، لهذا يطلق على سكان هذه المنطقة ببني الأغواط، إبراهيم مياسي، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934**، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009، ص43.

34 – س. ترومللي، المصدر السابق، ص 97.

35 – المصدر نفسه، ص 98.

36 – المصدر نفسه، ص ص 99- 100.

37 – هنا يورد ترومللي بأن الجنرال يوسف هزم الشريف محمد بن عبد الله وقتل حوالي 200 شخص من رجاله وغنم منهم 2000 جمل و20 ألف رأس غنم، في حين يحي بوعزيز يقول العكس أي أن الشريف محمد بن عبد الله هو الذي انتصر وغنم من الفرنسيين، والصحيح هو أن الفرنسيين هم الذين غنموا لأنه من المستحيل أن يأتوا بـ 2000 جمل و20 ألف رأس غنم نحو الجنوب وهم في حالة حرب. ينظر: يحي بوعزيز، **كفاح الجزائر من خلال الوثائق**، ص 107.

38 – س. ترومللي، المصدر السابق، ص 101.

39 – المصدر نفسه، ص 102.

40 – **بيليسيه (Pelissier Aimable Jean Jaques)**: هو من مواليد Maromme قرب Rouen في 16 نوفمبر 1794، تخرج من مدرسة سانت سير في 1815 برتبة ضابط في فرقة المقاتلين في بيت الملك، ثم بعد 100 يوم أصبح ضمن الفرقة 57 وشارك في عدة حروب بإسبانيا سنة 1823 وفي 1828، عين قائد الأركان بوهران في 2 فيفري 1839 ثم نائب قائد الأركان العامة بالجزائر، ثم عين حاكما عاما للجزائر سنة 1860، توفي سنة 1869. ينظر: فاطمة حباش، **المكاتب العربية ودرها في المد الاستعماري بالغرب الجزائري (1844-1870)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2014-2014، تهميش ص 31.

41 – س. ترومللي، المصدر السابق، ص ص 102- 103.

42 – **عقلة:** هي مجموعة آبار في الصحراء، ويسمى كذلك عقلة الفضاء الذي نجد فيه الماء بالتأكيد في أي نقطة تزيح الرمل عنها وذلك على عمق صغير، فعقلة المنيعة تنتمي إلى هذا النوع الأخير.

43 – س. ترومللي، المصدر السابق، ص ص 104- 105.

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

44 – **تاجرونة:** تابعة إلى أفلو تقع في الطريق الرابط بين سعيدة وورقلة وتبعد بـ 36 كلم عن عين ماضي بـ 283 كلم عن سعيدة. ينظر: حباش فاطمة، **سي الأعلى بن بوبكر القائد العسكري لثورة أولاد سيدي الشيخ (1820-1896)**، مذكرة ماجستير في التاريخ، جامعة وهران، 2004-2005، ص 67.

45 – قطيع الغنم يتألف من 400 رأس ويسمى بالعربية غنم أو عصا ويفهم من عصا عدد الأغنام التي تعطي لرعاية راعٍ.

46 – س. ترومليي، المصدر السابق، ص 106.

47 – **الخنق:** خنق واختناق وهو تقارب لضفتين من سيل جارف لنهر يغلق ممرا ضيقا، وخنق الملح سمي هكذا لوجود صخرة من الملح على الضفة اليمنى لهذا الوادي.

48 – س. ترومليي، المصدر السابق، ص 106.

49 – **راندون:** ولد بقرونبيل Grenoble في 25 مارس 1795، قاد عدة حملات عسكرية ضد القبائل الثائرة في كل من منطقة القبائل والأغواط، عين حاكما على الجزائر سنة 1852 على إثر سقوط الجمهورية الثانية. ينظر: حباش فاطمة، المرجع السابق، تهميش ص 89.

50 – عبد الحميد زوزو، المرجع السابق، ص 100.

51 – **سيدي حمزة:** ولد سنة 1814، وهو ينحدر نسبه مباشرة من الصحابي أبي بكر الصديق الخليفة الأول لرسول الله ﷺ، وهو من قبيلة أولاد سيدي الشيخ وهي قبيلة مرابطين مشهورة بالصلاح وكان لهم خداماً في اغلب قبائل الصحراء، وقد تزوج سلاطين المغرب الأقصى من بنات سيدي الشيخ أكثر من مرة، وفي سنة 1844 اختار السلطان عبد الرحمان إحدى أخوات سيدي حمزة "**الياقوت**" زوجة له، وتنقسم قبيلة أولاد سيدي الشيخ إلى الشراقة والغرابة وهي تسكن جزئياً في الأبيض سيدي الشيخ وفي قلب القصور الخمسة التي تتركب منها موجود ضريح جد سيدي حمزة تحت قبة، وهو الجد الأول والمؤسس لهذه القبيلة. ينظر: س. ترومليي، المصدر السابق، ص ص 113-114.

52 – س. ترومليي، المصدر السابق، ص 131.

53 – **م. دو. سي :** هو ضابط وكاتب فرنسي يمتلك موهبة كبيرة على الإقناع وقول الأمور ببساطة كان يرافق الخليفة سي حمزة لإقناعه بالمخططات الفرنسية ومكلفا بتسييره وتدجينه وحراسته وترقيع العلاقة مع عائلته ومع ابنه بوبكر. ينظر: س. ترومليي، المصدر السابق، ص 130.

54- س. ترومليي، المصدر السابق، ص ص 132-134.

55 – الحاج سعيد يوسف، **تاريخ بني ميزاب ونضالهم من أجل الحق في التباين**، المطبعة العربية ، غرداية، ص98 .

56 – س. ترومليي، المصدر السابق، ص ص 136-137.

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

57 – المصدر نفسه، ص 139.

58 – المصدر نفسه، ص 140.

59 – **الغرائر:** وهي أكياس من الصوف وشعر الماعز.

60 – س. ترومليي، المصدر السابق، ص 141.

61 – **سعيد عتبة:** ظهرت هذه القبيلة في القرن 13م، وخلال العهد العثماني تفرعت إلى فرعين الأول يضم أولاد مولود بنواحي تقرت، أما الثاني فيضم عشيرة سعيد عمر بتماسين والحجيرة والمخادمة المنتشرة بين ورقلة والرويسات. ينظر: عبد الحميد زوزو، **الوضع في منطقة ورقلة قبيل الاحتلال الفرنسي**، ص 102.

62 – س. ترومليي، المصدر السابق، ص ص 141-143.

63 – المصدر نفسه، ص 144.

64 – **بوسروال:** منطقة رملية تقع شمال غرب مدينة ورقلة على بعد 70 كلم. ينظر: عبد الحميد زوزو، المرجع السابق، ص 100.

65 – س. ترومليي، المصدر السابق، ص 144.

66 – المصدر نفسه، ص 146.

67 – **ستيتن أو استيتن:** هي مدينة تقع بولاية البيض لا يعرف أصل تسميتها مثل كثير من المناطق أو المدن الجزائرية، والراجح أن التسمية بربرية قديمة وهي أرض الحجارة نظرا لموقعها أسفل جبلين، وسكانها لم يطلق عليهم كلمة "عرش" إلا خلال فترة المستعمر الفرنسي وتحديد الفروع الحالة المدنية وتبني الألقاب سنة 1939 وتم ضبط 08 فروع : بني زروال، هوارين، نكاكعة، نخاختة، مناصير، مهيدات،أولاد احمد، شنايف.

68 – س. ترومليي، المصدر السابق، ص 147.

69 – المصدر نفسه، ص 148.

70 – المصدر نفسه، ص 149.

71 – المصدر نفسه، ص ص 150-151.

72 – المصدر نفسه، ص 152.

73 – المصدر نفسه، ص ص 153-154.

74 – أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج1، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 176.

75 – عميراوي حميدة، المرجع السابق، ص 46.

76 – **توات:** اختلف المؤرخون حول أصل تسمية "توات" فحسب عبد الرحمن السعدي أن سلطان مالي كنكان موسى اتجه للحج رفقة جماعة من أهل بلده، ولما وصلوا لهذه المنطقة أصيب بعضهم بمرض معروف عندهم

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

باسم توات، فسميت بذلك، أما أحمد العماري فيقول أن اسم توات بربري الأصل ويعني الواحات، خاصة وأن معظم قصور توات اسمها بربري الأصل مثل تمنطيط، تميمون، ينظر: زهرة مسعودي، **الطرق الصوفية بتوات وعلاقتها بغرب إفريقيا من القرن 18م إلى القرن 20م**، إشراف عبد الكريم بوصفصاف، مذكرة ماجستير، جامعة أدرار، 2010/2009، ص ص29-30.

77 – س. ترومليي، المصدر السابق، ص 153.

78 – دحدي سعود، **ثورة الشريف محمد بن عبد الله في الصحراء الجزائرية**، مجلة الباحث، جامعة الوادي (الجزائر)، ع 1، 2011، ص 111.

79 – المرجع نفسه، ص 143.

المراجع:

أ/ المراجع العربية:

– العسلي بسام، **الأمير عبد القادر الجزائري**، دار النفائس، بيروت، ط خ، 2010.

– برونو إتين، **الأمير عبد القادر الجزائري**، تر: ميشيل خوري، دار عطية للنشر، بيروت، ط1، 1998.

– بوعزيز يحي، **ثورات الجزائر في القرنين 19 و20**، ج1، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ط2.

– بوعزيز يحي، **كفاح الجزائر من خلال الوثائق**، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

– بوعزيز يحي، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، ج1، دار الهدى، الجزائر، 2004.

– زوزو عبد الحميد، **الوضع في منطقة ورقلة قبيل الاحتلال الفرنسي**، مجلة الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، مج 16، 2011.

– س. ترومليي، **الفرنسيون في الصحراء "يوميات حملة في حدود الصحراء الجزائرية**، تر: محمد المعراجي، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، غرناطة للنشر والتوزيع، 2013.

– سعد الله أبو القاسم، **الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900**، ج1، ق 1، عالم المعرفة، الجزائر، ط خ، 2009.

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

- سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
- سعود دحدي، **ثورة الشريف محمد بن عبد الله في الصحراء الجزائرية**، مجلة الباحث، جامعة الوادي (الجزائر)، ع 1، 2011.
- شكري محمد فؤاد، **السنوسية دين ودولة** دار الفكر ، ط 1 ، 1948.
- كعاك عثمان، **موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- مياسي إبراهيم، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934**، دار هومة، الجزائر، 2000.
- يوسف الحاج سعيد، **تاريخ بني ميزاب ونضالهم من أجل الحق في التباين**، المطبعة العربية، غرداية.

ب/ الرسائل الجامعية والأطروحات:

- بن ساعد عائشة، **البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر الجزائري**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2003-2004.
- حباش فاطمة، **المكاتب العربية ودرها في المد الاستعماري بالغرب الجزائري (1844-1870)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2014-2014.
- حباش فاطمة، **سي الأعلى بن بوبكر القائد العسكري لثورة أولاد سيدي الشيخ (1820-1896)**، مذكرة ماجستير في التاريخ، جامعة وهران، 2004-2005.
- شافو رضوان، **مقاومة منطقة تقرت وجوارها للاستعمار الفرنسي 1852-1875**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2006-2007.
- عباز الأزهاري، **نظام المشايخ في ورقلة بين العهدين العثماني والفرنسي خلال 1603-1884**، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي، 2014/2013.

المجلد: 12 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحات: 325- 348 ISSN : 9577-1112 EISSN : 2602-5388

- مسعودي زهرة، **الطرق الصوفية بتوات وعلاقتها بغرب إفريقيا من القرن 18م إلى القرن 20م**، مذكرة ماجستير إشراف عبد الكريم بوصفصاف، جامعة أدرار، 2009-2010.

ج/ المراجع الأجنبية:

Paul Soleillet, **L'Afrique Occidentale « Algarie, Mzab, Tidikelt »**, Avignon, Imprimerie De F Seguin Ainé, 1877.